أمير القلم

ديمة الشكر

المعذّب والمقهور والمذلول، هذه مصيبتنا وهذا واجبنا كصحافيين ومثقفين نقديين ومواطنين مسؤولين.

فالمشرب الاول الذي اندرج منه سمير قصير هو المسار الذي افتتحه فولتير وما عُرف بفلسفة الانوار التي ادت الى الثورة الفرنسية عام 1789 في افتتاحه ارثاً عالمياً شق طريقاً جديداً يحكي قصة حقوق المستضعفين ويجعل من النقد والوعي والعقلانية اساس العالم الجديد. اما المشرب الثاني فهو من صلب الحضارة العربية، من لحظة ابن رشد، ولكن ايضاً من الطريق الذي يمر من ابن سينا الى ابن خلدون، والذي يبتعد عن الحكم والحكام ليرسي فهماً عصرياً للسياسة كخدمة عامة وحَكماً قاسياً على السلطات المحلية القامعة والمنكّلة بشعوبها. من هذين المشربين تكوّن مسار سمير قصير حيث اصبح عنواناً لنشوء رأي عام كان هو التعبير الأسلم والأسبق والأنزه عنه. من هذين المشربين ربط سمير قصير ما يجري في مجتمعنا الضيّق بالتاريخ والزمان، وبالجغرافيا والعالم الاوسع، ليس بالعولمة الاقتصادية الشرسة بل بكونية المبادئ الاخلاقية المجدّدة المتنوّرة والمرتبطة بالاصالة في آن واحد.

ادخل بالفعل مبدأ المحاسبة الى المجال العام، محاسبة السلطان ورفض مفهوم السياسة كاستغلال واستبداد واستعباد.

اما بعد، فقد قال رئيس حزب لبناني ان انتفاضة الحرية التي جرت بعد مقتل الشهيد رفيق الحريري، هي مجرد ايار 1968. اي انها حركة رفض ولدانية ستنتهي بسرعة و لن تأتي بشيء. وحاول بعضهم اقناعنا بأنه يجب وقف التظاهرات لربما خوفاً من ان تعطي الجموع التي شاركت فيها، اما في المعارضة واما في الموالاة، معنى آخر للمدّ الشعبي من هذا الذي تريده القيادات. كأنه خوف من ابناء القرى النائية والعاصمة في آن واحد، من النساء والشباب، من الموظفين والعاطلين عن العمل، من المقعدين والمسوقين والمعدومين الذين اندفعوا الى الساحة العامة. ولربما كان سمير قصير قد وافقنا الرأي اننا كنا بعد في حاجة الى عشرة ايام من التظاهر لكي يسقط العالم القديم البالي، ونبدأ عالماً جديداً. ونحن اكيدون، ان الذين دافعوا وقتها عن رئاسة الجمهورية ودعوا الى وقف المدّ الشعبي لم يكن لهم اليقين ان هذا التوقف قبل السقوط الفعلي لرموز نظام القهر والاستبداد والخنوع، نحن اكيدون ان هؤلاء لم يكونوا واعين انهم تركوا الطريق مفتوحاً لعودة القتلة وقانون سنة الالفين، واذاً لاستشهاد سمير قصير.

لكن اليوم يشعرون جميعاً بالخطر الداهم. كيف ننتهي من مقولة ايار 68 ونؤسس لثورة 1789؟ هذا هو المعنى الاساسي الذي نبحث عنه في نتائج الجريمة في حق سمير قصير. كيف نعطي الحداثة معنى الدفاع عن الحقوق، حقوق الضعيف، حقوق المستضعف، حقوق الضحية، أكانت امرأة أم طفلا، فقيراً أم عالماً، مقعداً أم منبوذاً؟ ما الذي يُخيفهم مثلاً في ان نجعل التعليم اجبارياً كي لا تبقى بنت او لا يبقى صبي أميين في أحدى القرى النائية؟ ما يخيفهم ان تلك البنت، او الصبي، لن يعودا أميين، وفي هذا البلد بين الاطفال حوالى 15 في المئة من الاميين خصوصاً من النساء وفي القرى النائية حيث تصل النسبة الى 60 او 70 في المئة، وقد يحررهم ذلك من حكم العشيرة والعائلة، المنطقة والطائفة، الزعامة والجهّال. هذا ما يخيفهم في ثورة الحقوق، لان التعليم يؤدي الى العلمانية وانتهاء الحرب الاهلية الى التفاعل بين الاصول المتعددة لكل واحد منا، كما كانت اصول سمير واصولي واصولك ايها القارىء، من دون تمييز بل رغم هذا التمييز. هذا هو معنى الديموقراطية التي نادى بها سمير قصير وهذا هو معنى الحداثة التي كتب من اجلها: مواطن حرّ وشعب سيد، كما قال الشاعر الجزائري وكما تربّينا على صفر لكن فرّقتنا الايام على كِبَر.

مسيرة التغيير ستكون، لكنها طويلة، لم تتحقق مبادىء 1789 بين ليلة وضحاها بل امتدّ التغيير على ثلاثين عاماً، التاريخ لا يعلّمنا اليأس بل يعلّمنا ضرورة الصلابة في الموقف.

اما المعنى الثاني للحقيقة التي بحث عنها سمير قصير فهو انه لن يستقيم الوضع في لبنان اذا لم يستقم في سوريا، ولن يستقيم في سوريا ان لم يستقم في السعودية، ولن يستقيم في السعودية ان لم يستقم في العراق ومصر، ولن يستقيم في العراق ومصر مالم يستقم في فلسطين. وما العجب؟ فثورة 1789 امتدت الى كل اوروبا، وابن رشد جال في الاندلس والمغرب، وابن خلدون دار من مدينة الى اخرى. لا يمكن ان ينجح التغيير في بلد واحد، مهما ادعى يوما ستالين.

اما المعنى الثالث فان 1789، ثورة قول الحقوق والحقيقة، ثورة انتهاء الحروب الدينية وانشاء الديموقراطيات الحديثة اي حلم المدينة الفاضلة، يلزمها وقت ومثابرة وعناد وعضّ على الجرح وعدم حياد عن الهدف وثبات في الافكار ومناعة من الانجرار الى الانتقام من الضعفاء؟

لقد أخبرنا سمير لانه كان يقول الحقيقة، فلنعطه اليوم، اينما كان، اسباباً لكي يحيا، اننا لم نترك اهداف التحرك الشعبي تسقط، اننا لم نترك المواطن اسيراً والشعب تعيساً، اننا لم نسقط في فخ الذئاب فاما نخاف منها ونتراجع واما نصبح مثلها ذئاباً ونتقمع من الضعيف والمعدوم او نتساه. ربيع بيروت يجب ان يكون زلزالا سلمياً وداخلياً يطاول الشرق الاوسط كله، يدك مواقع الاستبداد والظلام والعذاب، ولو طلب ذلك منا وقتاً وجهداً وتضحيات، فكلها تهون امام تضحية هذا الصديق الذي بحث عن المعنى والتقى بالقول الحق وسيستمر، رغم غيابه، بالكلمة والقلم ضد السلاح والجبروت والعنصرية.

اردما حداثة ديموقراطية علمانية، فلتكن، لانها السبيل الوحيد لنقل شعوبنا الى موقع ارقى في الزمن والمجال، في التاريخ والحضارة، في الوجدان والايمان بالانسان. ان كان للبنان معنى في هذا الشرق الاوسط فهو ادخال الحداثة اليه مع الحفاظ على تقاليد التعايش والتفاعل. وكلنا نعرف اليوم اننا بذلك كنا على نقيض من المآسي التي حلّت في هذا الشرق الاوسط من الارمن الى الفلسطينيين الى الاكراد، فلنا والصحافة اللبنانية دور ريادي جسّده سمير قصير. يجب الا نبكيه بل يجب ان نحكيه ونكتبه لكي لا يقف الزمن بل يستمر في ذاكرتنا. شكراً يا سمير لما كنت ولما ستكون ■

يحار السوريون كيف يكتبون عن سمير قصير، بعيداً من اللغة "الرسمية" المعتادة المسموح بها في حالات "الرثاء الشديد": اللغة التي تجيد تماماً ان تشجب وتدين وتستنكر الجريمة التي ارتكبها الوحش ذات صباح بيروتي على مرأى من دمشق.

يحار السوريون: كيف يكتبون رثاء حقيقياً لائقاً بسمير قصير؟ فكيف يكتب الرثاء بعيداً من القلب وملتصقاً به؟. كيف يكون الرثاء من دون القلب؟

ربما يكتب السوريون رثاء مغلفاً بالكلمات التي تقول حزناً عاماً رسمياً يناسب صورتهم كمعارضين للنظام أجمعين. على عادتهم لا يفسح السوريون عن شؤون قلوبهم التي اصيب كل واحد منها اصابة لا يمكن إلا وصفها بالإصابة الشخصية.

قيل اعلامياً ان سمير قصير اغتيل بسبب مواقفه الجريئة الشجاعة ضد الوجود السوري المخابراتي في لبنان. وقيل إعلامياً ان سمير قصير شهيد "انتفاضة الاستقلال" التي ولدت على مرمى حجر من دمشق.

تابع السوريون جميعاً ثورة بيروت البيضاء التي انطلقت عقب اغتيال رئيس الوزراء السابق الشهيد رفيق الحريري. وشهدوا ما شهدوا، وشاهدوا كيف يسير القول مع الفعل معاً وعلانية في وضح النهار.

وفي وضح "النهار" كان سمير قصير يكتب كل يوم جمعة المقال الاكثر شهرة في الوطن العربي برمته. مقال باهر متقن حيوي، وصائب في كل مرة. مقال يغيّر النظرة الى التحليل السياسي مرة والى الابد، ويجعله ذكاء خالصا صادقا، وفناً راقياً شريفاً؛ من فرط ما به من شغف ودأب وبصيرة فذة نادرة، يكاد يزاحم الرواية والقصيدة على مكانتهما في القلب.

من القلب كتب سمير قصير، من القلب فقط. وأصابنا في القلب مرتين: حين كتب، وحين ذهب.

وبعد،

توجّت بيروت سمير قصير بطلاً شهيداً في العلن، أما دمشق ففعلت ذلك في السر، كما لو كانت حبيبة سرية لرجل متزوج.

شهيد علانية في لبنان، وشهيد سرا في دمشق، هذا هو سمير قصير.

شهيد مزدوج لربيعين: واحد قصر عمره قسرا، وآخر يبكي عمر سمير القصير.

تماما مثلما كان يفعل غسان مسعود فيطبع مقالات سمير قصير ويوزعها، ويتصل بكل من يعرفه ليتابع سمير على التلفاز، فعلنا كلنا هنا في الوطن الأسير. ونشأت بيننا نحن السوريين وسمير قصير لغة من القلب الى القلب.

لغة أشهرها سمير قصير دفعة واحدة، وسكبها على الورق حين قال عنا ولنا: شعبك عظيم يا أخي، مخاطباً فاروق مردم بك في منفاه الباريسي، جواباً عن سؤال عدد "الملحق" الشهير المعنون "هل انتهى ربيع دمشق؟". "شعبك عظيم يا أخي" قال سمير عنا لنا.

ولم يذكر دمشقنا مرة الا وجاورها مع الورد. لمرتين كانت دمشق محطة انتظار الورد في عيني سمير: مرة في رسالته إياها الى فاروق حين ختمها هكذا: "وفي انتظار ان يحين أوان الورد في دمشق ونحتفل معا بحرية ارضها، دمت لأخيك". ومرة مخاطباً الوحوش ذات جمعة هكذا ايضا: "يعرفون اكثر من غيرهم ان ربيع العرب حين يزهر في بيروت، انما يعلن أوان الورد في دمشق".

لكن السوريين سكان "مملكة الصمت"، ولفرط ما أصيبت لغتهم بعطب الخوف المزمن، كتبوا ما ارادوا قوله دائما... رغم الصمت.

كتبوا بين السطور ومن خلال رسائل خفية يتقن قراءتها فقط من يعرف حالهم في الداخل، أما من في الخارج فيرى لغتهم أقل عضباً مما يجب، وأقل اشتعالاً مما يليق. من فرط وطأة البؤس والقهر، صار لنا نحن السوريين لغتين: لغة نتقن صياغة شيفرتها وصنع حبرها السري، وأخرى تفصح عن صورتنا متزينين متماسكين صامدين، كما لو ان حكمة أبدية تنصح من في الداخل بالحذر، سطت على القلوب، وشقت اللغة نصفين، فكتبوا ما أرادوا واهمين ان الكل يتقن فك شيفرة لغة الداخل ولا ريب.

فلتذهب الى أبدها تلك الحكمة، ولتصطحب معها الى الجحيم لغة شيفرة الداخل. كي لا تكون لغتنا إلا لغة سورية على طريقة نزار قباني، لا مكان فيها لسرد فضائل الفقيد الشهيد، او لتعداد مواقفه الجريئة الشجاعة، او لتبيان بلاغة الحرية في موت سمير، كل هذا يحفظه السوريون عن ظهر قلب، ويعرفونه كما يعرف المرء راحة اليد، والاصابة في القلب، والخسارة في الروح.

فلنقل ان البلاد، بلاد الشام أجمعين، أصيبت في قلبها تماما. اما دمشق وردة البلاد فتبكي "أوان الورد"، تبكي سمير الأمير، أمير القلم ■